مقالات اسماعيلية

لأستاذ جليل

حلّ بِرَقّادَةَ المسيحُ حل بها آدم ونوحُ [١]
حل بها (الله) ذو المعالي وكلُّ شيء سواه ريحُ [٢]

* * *

هذا (مَعَدٌّ) والخلائق كلُّها هذا (المعزّ) متوّجاً والدينُ
هذا ضميرُ النشأة الأولى التي بدأ الإلهُ، وغيبُها المكنونُ
من أجلِ هذا قُدِّر المقدور في أمّ الكتاب، وكُوِّن التكوينُ
فارزق عبادَك منك فضل شفاعة واقربْ بهم زلفى فأنت مكين [٣]

* * *

هذا ما وُعِدَه العالمون والمتعلمون المثقّفون قرّاء (الرسالة الهادية) من (المقالات الاسماعيلية)، وإن الناس منذ الأزمنة القديمة ليتطلعون إلى علم نحلة القوم، وإن الباحثين في الشرق والغرب ليجدّون مفتشين منقبين في كل وقت عن تلك المقالات لينشروها، إذ أنّ أهلها في القديم والحديث قد خبؤوها وكتموها — وياليت شعري أيّان يريدون أن يعلنوها؟ — ولم تفدنا كتب (الملل والنحل) لمثل الشهرستاني والأشعري وابن حزم والبغدادي والتصانيف في (مفاضح الباطنية) لمثل الغزالي وابن تيمية — إلا نُتَفاً نُتِشت من مكنونات الجماعة نتشاً. وليس هناك كتاب معروف مطبوع ظاهر ألمّ بمذهب (الاسماعيليين) إلا (رسائل إخوان الصفاء) فإن فيها خلاصة الاسماعيلية ملفوفة بإسلامية لَفّ ماكر داهٍ، وهي الاسماعيلية، هي الباطنية، وهم الدهاة دعاتها!

وقد تَوَّه ما فيها علماء متعمقين كأبي حيان التوحيدي وشيخه أبي سليمان السجستاني وغيرهم في المتقدمين، وحيّر حاذقين ألمعيين من المتأخرين من أعجميين وعربيين مثل (باربيه دومينار) والدكتور طه حسين. ولولا أن الأمر استعجم عليهم ماقال أبو حيان وشيخه مثل الذي رواه القفطي في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، وما كان الدكتور طه حسين سطر في (مقدمته) لتلك الرسائل ما سطر، ولم يكتب دومينار إلى الأستاذ أحمد زكي (رحمه الله) ذلك الكتاب. وإذا كان أمثال هؤلاء البارعين النحارير قد حاروا ودير بهم «فهم في أمرٍ مَريج» فكيف حال من هم دونهم؟

والقصد من هذا الكلام أن (مقالة) الجماعة — وإن ضمّنها تلك الرسائل المطبوعة المنشورة — لم تنفك مستورة محجوبة. وقد قال لي منذ بضع سنين (الدكتور حسين الهمداني [١])

---

(١) رقادة: بلدة كانت بأفريقية بينها وبين القيروان أربعة أميال، والمعروف أن الذي بناها ابراهيم بن احمد بن الأغلب، وكان تغلب عبيد الله الملقب بالمهدي عليها سنة ٢٩٧ (معجم البلدان). وعبيد الله هذا (ويقال ان اسمه سعيد وعبيد الله لقبه) هو جد العبيديين الذين ملكوا في المغرب ومصر، وفي نسبه اختلاف كثير كما قال (ابن خلكان) وشرح حاله يطول

(٢) (الله): عبيد الله ... والبيتان قيلا فيه حين قدم رقادة، وهما لبعض الشعراء، وقد نسبا إلى ابن هانيء الأندلسي خطأ، وأثبتهما ناسخ ديوانه وطابعوه فيه

(٣) لابن هانيء الأندلسي، والشاعر لم يسلك فيما يقول طريق الشعراء في المبالغة والغلو بل قال ما يعتقده هو وما يريده ويدعيه (العبيدي) وربما عد (المعز) ابن هانيء مقتصداً أو مقصراً، وإن كانت تلك النوية الساحرة الفتانة قد ظفرت بخمسة عشر ألف دينار «والله يرزق من يشاء بغير حساب»، ومن قول ابن هانيء في المعز.

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء
ليست سماء الله ما ترأونها لكن أرضاً تحتويه — سماء

جاء بلفظة (ترأى) على الأصل

(١) كنت قد رأيت في ثلاث صحف، أشياء في (إخوان الصفاء ورسائلهم) كلها تخاليط فنشرت في جريدة (البلاغ) الشهيرة في ٢ صفر ١٣٥٣ مقالة عنوانها (الاسماعيلية ورسائل إخوان الصفاء) منها هذه السطور: (للنحلة الاسماعيلية دعوتان: دعوة قديمة وأهلها اليوم اسماعيليو اليمن، ودعوة جديدة وإمامها (آقاخان) المشهور؛ والأولى لاتأتم به ولا تعرفه.. ومن شيعة الدعوة القديمة الدكتور حسين الهمداني أستاذ تاريخ الاسلام في جامعة بومباي. قال — حين تلاقينا وقد ذكرنا الاسماعيلية ورسائل إخوان الصفاء —: إن الاسماعيلية يرون القرآن الكريم كتاب العامة، الجمهور، ثم لطف اللفظة فقال: الأمة، ويرون رسائل إخوان الصفاء كتاب الأئمة. فعالناه رأينا في تلك الرسائل ثم ذكرنا له المخالفة وابتغاء الايناس قول (المعلمة) أو دائرة المعارف الانكليزية في التربية والتعليم (وهي غير تلك الكبرى) في رسائل إخوان الصفاء وهو: (إن الاسماعيلية قد أفضلت إلى فن التربية والتعليم برسائل إخوان الصفاء) ثم قلنا له: قد قرأنا تلك الرسائل ولخصنا نحلة الاسماعيلية في هذه الجملة: (الاسماعيلية قنطرة (جسر) بين الاسلام والالحاد) فأخرج الدكتور الهمداني دفتراً وكتب قولنا وقال: ما سمعت بأحسن من هذا) وقد أطلعني العلامة الأستاذ (خليل مردم) على رسالة مطبوعة للدكتور الهمداني في (رسائل إخوان الصفاء) فوجدته قد روى تلك المقالة كلها عن (البلاغ)

— وهو من شيعة الدعوة القديمة للاسماعيلية — إنه قد اطلع على مئة مخطوطة من كتب القوم منها (زهر المعانى) الذى أخذ بمؤلفه فيه درجة (الدكتوراه) من جامعة فى لندن ، وأنه عازم على نشرها أو نشر طائفة منها . أفنقول — ولم تحقق تلك الأمنية المتمناة — : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » أم نرتقب تلك الكتب فى المرتقبين ؟

إذا ضنّ الأضنّاء بالضنائن[1] ولم تصل أيدينا إلى تلك الخبايا فى المخادع والزوايا ، فليس لنا إلا غزو الغازين من الغربيين ، والغازى — وإن كان قوياً — يُغزي ... والناهب — يا أخا العرب — يُنهب ...

وكنت إذا قومٌ غزوني غزوتهم

فهل أنا فى ذيّاك (همدانُ) ظالم[2]

وقد قلت لإسلاميتى (الصحيحة) وعربيتى — وأنا أنسج ما ستتلوه — : قفا واسمعا ولا تنكلما . لا تجادلا ولا تناقشا ، فليس المقام مقام جدل ، ولا عدل ميل ، فالمقالات — والنية هذه — تحكى كما وجدت ، وتعطى كما أخذت ؛ وإن وجد الخطأ اللغوى لا يُصلح ، وإن جاء تصحيف أو تحريف فى كلمة أو جملة — حاشا الآيات القرآنية — يُستبْق ، وليس لدى نسخة ثانية حتى أرجع إليها . ورب إبقاء على شىء خير من تغييره ، والقارئ الفهم لا تخفى عليه الكلمة محرفة ولا تستبهم . ولن يصدنا ذلك عن تعليق أو حاشية

ولو قلنا لأصحاب لنا أدباء فاضلين من (الحاكية) و (الاسماعيلية) فى بر الشام ممن لا يعبدون (العَدَم) وقد عبَد الأجداد والآباء (العبيدين) وإن كانوا هم — أى الأبناء المثقفون — بعبادتهم كافرين . فلو قلنا لهم : أطلعونا ياجماعة على رسائلكم حتى نعارض (نقابل) هذه (المقالات) بها ونصلحها لقالوا : ما عندنا ولا نعرفها ، وإنا مسلمون ؛ وإنها لديهم ، وإنهم يعرفونها ، ولكن المتشيطنين يكتمون ...

ولم يك فى المقالات هذا المسمى بعلامات الترقيم — إلا فى اثنتين — فرأيت وضعه حتى لا تقتحم العين الصفحة قد التصق بعضُ عباراتها ببعض فكدّ البصر ، وما هذا الصنع بأمر نكر

وقدرُ هذه (المقالات) عظيم . ومن عرف نحلة القوم أو ألمّ بها أدرك مما يتلوه مما عليه ما لا يدركه غير العارف ؛ ولو درى شيئاً من اصطلاحات الباطنية الذين قالوا تأثمين ضالين ماقالوه فى (رسائل إخوان الصفاء) ما جاءوا خابطى عشوة ، وصاروا فى عصر البحث والتحقيق ضحكة . ومن قذف بمقال لا ينصره نص ولا يسانده دليل ، فهو هذر ، وكلامه هدر ...

واعلم أن هذه الاسماعيلية لم تظهر فيها حتى اليوم كتب قديمة تبين كيفية بدئها وحقيقة حالها تبييناً صحيحاً موضحاً شافياً ، ولم يهد بحث الباحثين فى هذا الزمن إلى شىء من ذلك

قلت مرة لعالم عاقل إسماعيلى : دعْ قول الإسماعيلية فى أصلها ودع حديث خصمها ، فهل أوصلك تحقيقك الناقد ، وتفتيشك المدقق ، إلى مصدرها الصحيح ومنبعها ؟

فقال : لا

فنحن من نشوء هذه النحلة فى ظلمات بعضها فوق بعض . ولعل كتباً قديمة تنجم فتضىء هذا الليل المظلم . ورب علماء محققين لا يجترئون بالقريب المعروف ، بل يمشون أقوياء أشداء صابرين فى فلوات البحث فيصلون إلى (عين المعرفة) ؛ ورب غوّاصين يغوصون فى بحور البحث والتنقيب غوْصات إثر غوصات فيخرجون لنا شيئاً . ولن يجىء بالدر إلا الغواصون الماهرون

* * *

فصل فى مناجاة المعز لدين الله

قال هذه :

(إلهي) كنت رتقك ، قبل أن تظهر فىّ بفتقك ، وأوجدت عنى خلقك ، وصدرت عنى دنياك فى الذات والأسماء والصفات . ولست أنا بك متصلا ، ولا عنك منفصلا ، إذ أنا بك تبعيض ، وأنا راجع إليك عند النقلة والتفويض . انقلْ الصورة كيف تشاء ، وأعط النور الإلهى لمن تشاء بما قدمت أيديهم ولا تظلم مثقال ذرة . (إلهى) انى كما أنت عظيم فى سلطانك ، وأنا قدرتك وبرهانك ، وإرادتك ومكانك . (إلهى) بمعرفة بى استجبْ وسلمْ وأشرقْ ألوانك ، وإنى وجدتك بعد أن عرفتني التلاقي ،

(١) ذكرتنى هذه العبارة (الضادية) برسالتى ابن الحريرى (السينية والشينية) وقسا بلغة (الضاد) ما تكلفت ذلك

(٢) مالك بن حريم ، وبعده :

فتى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفاً حيياً تجتنبك المظالم

واتلف واضمحل . (إلهى) وأفنى من جهلك ، وفاز وبقى من عرفنى بالبداية وفضّلك . (إلهى) أترى يعرفك سواك ، ويدنو منك إلا إياك ، أم يعدو إليك من خرج عن طاعتك ، وطاعة حدودك وأوليائك . إلهى بك استدللت ومنك وصلت وإليك[1] (إلهي) ليس غيرى لك حجاب ، فكيف الوصول إليك من غير باب ، فأنا منك بحيث النهوض والنهمة ، وأنت أنا بحيث أنا القدرة والعظمة ، وحيث أنا بك خلقت أولياءك ، وبدعت ملائكتك وأنبياءك ، فلما عرفتك كنت ذلك ، إذ ليس يعرفك سواك ، ويدنو منك إلا إياك ، باتصالك بحدودك وأوليائك . (إلهى) إن كثرت الأشخاص ، فهى أنت بلا اختصاص ، وأنا منك بديت ، لأنى بحدودك اهتديت ؛ ان عرشك عليه استويت . (إلهى) أوجدتني منك فى ظاهر الأمر بصفة كانت الموجودات على دفعة واحدة ، فأنت بى باطناً وأنا بك ظاهراً . (إلهى) ظهرت الموجودات كلها بى ، واخترعت منى كل رسول ونبى ، وأنا ابن لك وأنت أبي . أنا منك كالفيض ، وشراقه وليف[2] فليس الفيض غير الفيض ، فقد غاب ، واضمحل كلما فى النار وذاب . (إلهي) رامت رؤساء الجهل وأهل العمى والضلال وذوى الانكار والجحود[3] ، وأنهم خرجوا من العدم إلى الوجود ، وهم فى العدم . يا (إلهى) وصلت إليك ، ومنك دخلت عليك ، فأنا قدرتك الظاهرة ، وعنى ظهرت آياتك الباهرة . إلهى حقنى[4] ابتلاؤك ، لأنها حلاوة رضائك ، فنفسى منك وإليك انتهت . (إلهى) ظهرت للخلق حتى يعرفوك من حدودك فحجبتهم عنك لما زادونى إنكارك ، وذلك أنهم ضلوا فى التكبر عن أبيهم ، فلم يجدوا لهم مرشداً أبداً يهديهم ، فأظهروك بى لأنى أنت ، وكونى بك ظاهر ، وأنت فىّ حاضر . (إلهى) أنا الكرسى والمكان ، والوقت والزمان ، وأنا منشىء المثقلات ، وأنا بك عالم ما يكون وما كان . (إلهى) أنا اسمك وموجود اسمك ، وأنا البشير إليك ، والدالّ عليك ، والدالّ على من دالّ[5] عليك ، فمن تمسك بحدودك نجا ، والصورة معادة ورآء ليس دونك حجاب غيره فقصده لا بلاء سواك بأوحد[1] ولا لك اسم سواي فيستطاع ويعبل ، وأنا صاحب البقاء ، وعلى ذات النطقاء ، وأنا فىّ النطق . (إلهى) قصرت لذاتك إنكار الباحثين إذ لم يقصدوا لحجابك ، وأحجبتهم[2] عن معرفتك إذ لم يدخلوا إليك من بابك ، فهلكوا لما أنكروا لكلمتك ، وتاهوا لما عجزوا عن معرفتك . (إلهى) أنت ذاتى ونفسى ، ومعدنى وقدسى ، ونطق وأنسى ، ألا فىّ اختفيت فاشرقت ، وبى اقتربت[3] فابرقت . أنا نظرتك بكلمتك الإلهية ، وكلمتك القدسية ، وذاتك الأبدية ، والذات الأزلية الكلية ، ونورك[4] ، وبى ظهورك ، بك ظهرت وبى نهيت وأمرت ، فمن عرفنى فقد نزهك ، ومن اتصل إليك بحدودى (فقد عرفك) فقد عرفتك أنا غيرى فتكون أعداءك ، ولا أنت غيرى فتكون أفرادك . أنا كنت فيك رتقاً ، وفىّ ذلك حقاً ، فأطلقتنى ولم تفصلنى فى وجودى . أرجوك تعيد ووقت تطلب فتقصد[5] ، فأنا منك كضوء السراج من السراج ، بلا تبعيض ولا إمزاج . (إلهى) صدق المستجيب لما قال لأبيه ، إلهى منك بديت ، وإلى معرفتك اهتديت ، وإليك توجهت ، وإليك تبت ، وبك منك إليك سميت ، ولو فرطت فيك لاضمحلت وتلاشيت ، ولو اقتديت بغيرك أشركت وتعديت فى طاعتى لك فعرفت ودركت[6] (إلهي) كادت نفسي لعظيم امتحانك أن تجهل وتخفى كنه علمك وتكفر حتى ألقت عنانها[7] بجودة من نور معرفتك ، فجذبت وتلطف قدارتها بضوء من علمك فسكت فيه بعد ما كنت جحدت وتبت عند ماسليت بنعمتك[8] فهدت بعد (أن) كانت جحدت فأورثها الثبات بالنعيم المقيم والنجاة من العذاب . (إلهى) عجزت المقصرون بنظرهم إليك وقالوا لا يجوز الصفة أن تدرك الصانع ، فلو علموا أني بك استقرارهم ، وأن تصديقهم هو إنكارهم . (إلهى) هل يعرفك من ليس منك ويتفكر إنما هو أنت محال . (إلهى) لم لم لا تنقل الصورة بما لا تريد ، بل

(١) وصلت إليك
(٢) وإشراقه متألق أو مؤتلق
(٣) شيء حذف فى الجملة
(٤) حفنى
(٥) دل

(١) كذا هذه الجملة والتى قبلها (٢) وحجبتهم
(٣) أو اقتربت (٤) رب محذوف قبل الكلمة
(٥) كذا هذه الجمل
(٦) كذا هذه الجملة
(٧) حتى ألقت عناءها أو حتى ألقت عنايتها
(٨) كذا هذه الجملة

فى وقت تريد، فلولا نظرك إليها بالمشاكلة لأُفقدَت، ولولا تعطفك بالمناسبة لأُبعِدت. (إلهى) لقد خاب من أنكر معرفة نفسه منك، ولقد ظلم من لم يعرفك بك، وهو بك ظهر، وبى حجابك وفى حجابك استتر، وأنت الناظر بلا حركة. (إلهى) تناهوا الجاهلون فى طلب معرفة حدودك وطلبوها معرفة فى تيجان الملوك، فلما نظروا حدودك، نكروك. (إلهى) ناجتك المحقون وقالوا يامبدع الأحد، من غير عدد، تختلف الأعداد بك، بقدرة منك، دعوناك فالذى عرفك منك إليك، عاد إليك. (إلهى) تحيرت العقول عند طلبتك، أتاهت[1] الأبصار فى رؤيتك. (إلهى) قالوا الجاهلون فى معرفتك وما تُبيّن فلا عرفوا، (إلهى) لقد غاب من نادى سواك، ومن عرفك بحقيقة المعرفة تيقن أنك دائم، ومن أفضل التنائم. (إلهى) ظهرت لهم فوق المنائر، فتوهموا أنهم حصلوك بالعناصر، فأثبتوا التشبيه والتمثيل، وعدموا التنزيه والتحصيل. (إلهى) عجزوا عن اثبات النفر[2] ولم يعلموا ما حقيقة العيان من الخبر، فالنظر حجاب عنك لا لك، والمنظور أنت به لا (هو) فيك. (إلهى) من قال إنه لا يعرفك، فقد عدمك، ومن عبدك، من غير حدودك، فقد حال إلى غائب معدوم، فأنا الذى لا تدركه الأبصار، وأنا أدرك الأبصار، وأنا اللطيف الخبير[3]، فاللطيف الخبير، صورنى بالصورة المرئية، التى هى الحدود العلوية. (إلهى) بوجود معرفتك اهتديت، وبمدد المصرين عنك تباركت وتعاليت. (إلهى) كنت أنت والمكان، لأن المكان هو إشارة بالفيض وتكرير الفكر باحضار المكان، والمكان هو المركز هو الدال عليك. (إلهى) كلما ظهرت عنى صورة فظهرتها أبدع على أولها اخفيا[4] لأنقلها عنى «وأنا فعال لما أريد[5]»

* * *

هذه الأولى من (المقالات الاسماعيلية) والباقيات فى الأعداد الآتيات من (الرسالة)

(قارئ)

(١) تاهت أو أتيهت أو أتاهت وفى زائده (٢) النظر
(٣) الآية الكريمة: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير (٤) كذا
(٥) القول الكريم: إن ربك فعال لما يريد

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٨ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجى — كونفيشيوس

مذهبه

صدر «كونفيشيوس» فى فلسفة النظرية عن نفس النقطة التى صدرت عنها فلسفة عصر ما قبل التاريخ، وفلسفة «لاهو — تسيه»، والتى أشرنا إليها فى حينها، وهى نقطة القول بوحدة الوجود التى تفرع عنها نشوء كائن سلبى أو يتأثر عن الكائن الايجابى المؤثر، ومن اجتماع قوتى هذين الكائنين نشأت المادة، وبتأثير النفس على هذه المادة وجدت الكائنات الحية التى بين السماء والأرض

غير أن «كونفيشيوس» تعمق فى هذه النقطة وسيرها فلسفية جديرة بالدراسة والتمحيص، إذ أضاف إليها أن جميع جزئيات الطبيعة مشتملة على الانسجام التام الذى هو سر جمالها وتقدمها وصلاحيتها للوجود، وأن هذا الانسجام ليس موجوداً فى هذه الكائنات بطريق المصادفة، بل هو تنفيذ لإرادة إلهية مرسومة خطتها فى منهج السماء، وأن هذا الانسجام محكم الوضع فى جزئيات الطبيعة إلى حد أنه يظهر «ديناميكيا» وأنه هو العلة فى تطور الكائنات المادية والظواهر الطبيعية، ولكن كيف ولماذا كان هذا الانسجام علة لذلك التطور؟ لم يجب «كونفيشيوس» على هذا السؤال مطلقاً، لأنه عد البحث فيه فوق طاقة العقل البشرى، فوافق فى هذه الناحية «لاهو — تسيه» الذى أسلفنا أنه صرح هذا التصريح أيضاً وإن كان لم يكن قد وصل إلى كشف سر هذا الانسجام وأثره العظيم اللذين وفق «كونفيشيوس» إلى كشفهما